﴿ رسالة جمع النفائس ، لتحسين المدارس ﴾

يقول الذين أرسلوا الينا هذه الرسالة ان السيد عثمان بن عبدالله بن عقيل كتبها ليقاوم بها نهضة المسلمين الحديثة لانشاء المدارس وطلبوا منا ان نبين لهم رأينا فيها كما ذكرنا ذلك في الجزء الحادي عشر . وقد تصفحنا معظم الرسالة فظهر لنا ان كاتبها قد كتب مايعتقد انه النافع كما هو ظننا في سائر مكتوباته وانه لم يقصد تثبيط المسلمين عما هو نافع لهم ارضاء للحكام أو لغير الحكام ولكن الذين فهموا منها تثبيط المسلمين عما ينفعهم معذورون ولا يسوغ لنا ان نقول انهم متحاملون »

الرسالة مؤلفة من ثلاثة فصول أولها في العلم والتعليم والمدرسة وبذل المال لهذا الامر ونتيجة العلم وقد جاء في ذلك بفوائد ونصائح لا بأس بها وان كان فيما استدل به احاديث ضعاف لا يحتج بمثلها ولا نطيل في ذلك لما جرى عليه المؤلفون من التساهل في ايراد مثل هذه الاحاديث في فضائل الاعمال ولا سيما الغزالي رحمه الله تعالى ورأيته يذكر في هذا الفصل كغيره السلف الصالح ويحث على اتباعه ويعد من ذلك قراءة رسائل وكتب احمد بن زين وسالم بن سمير وعبدالله بن علوي الحداد وغيرهم ممن ليسوا من سلف الامة وهم أهل القرون الثلاثة على المشهور فكأنه يعد المتأخرين من أهل حضرموت وغيرهم من السلف ولا أدري ماهي مزيتهم على علماء هذا العصر في الهند ومصر وتونس . وعندي انه لا يعتد برأيه في الكتب النافعة ولا في طريقة التدريس . والفصل الثاني عشرة اسطر في الاتفاق على العمل وبذل المال له ولا بأس به

واما الفصل الثالث فهو الذي يثبط همة من تقاه بالقبول على علاته لانه ينفر المسلمين من كل ماعليه الاجانب في علومهم وأعمالهم الدنيوية التي بها صاروا اقوى وأعز من المسلمين حتى ان دولة صغيرة في شمال أوربا تستولي على أكثر من ثلاثين ألف ألف مسلم في جنوب آسيا وتتصرف فيهم تصرف السيد في عبيده الضعفاء ولو عملت الدولة العثمانية بمثل هذه الآراء لاستولى عليها الاجانب من زمن بعيد ولم تبق للمسلمين حكومة مستقلة

ومن بلايا تناقض هؤلاء المقلدين انهم يحرمون الاستدلال بالكتاب والسنة على من أهم أهل له ويبيحونه لانفسهم مع اعترافهم بأنه ليسوا من أهله ومن ذلك استدلالهم بحديث ابن عمر «من تشبه بقوم فهو منهم» على تحريم كل شيء نافع سبقتنا اليه أوربا: والحديث لا يدل على ذلك على ان سنده ضعيف عند رواته وهم احمد وأبو داود والطبراني في الكبير، وتصحيح ابن حبان له لا يعتد به لقسا هله في التصحيح ومعناه ان من تكلف ان يكون شبيها بقوم فان التكليف يصير خلقا بعد تكرار العمل فيصير بذلك من القوم فيما تشبه بهم فيه فان تشبه بهم في الكتب من أمور الصناعة صار صانعا مثلهم وإن تشبه بهم في الاعمال الحربية صار كواحد منهم في ذلك، وان تشبه بهم في كل شيء صار مثلهم في كل شيء ولكنه اذا تشبه بهم في بعض الازياء او العادات لا يصير منهم في أمور الصناعة أو الحرب أو الدين واذا تشبه بهم في أعمال الدين فقط لا يصير منهم في السياسة أو الادارة ولا في الصناعة والزراعة. فالمسلمون في العراق موافقون لمسلمي مصر في الدين لا متشبهون وهم ليسوا مثلهم في اتقان الزراعة فمن الجهل الفاضح ان يقال ان من تشبه بآخر في شيء يصير مثله في غيره، ويتفرع على هذا اننا نحن المسلمين إذا تشبهنا بالافرنج في الامور الحربية والسياسية والصحية وطرق الكسب فاننا لا نكون معدودين منهم في دينهم وان في بلادنا من هم موافقون لهم في دينهم وكثير من عاداتهم وهم مع ذلك ليسوا مثلهم ولا يعدون منهم في الامور السياسية والحربية مثلا.

وقد ثبت في الصحيحين ان النبي صلى الله عليه وسلم لبس الجبة الرومية والطيالسة الكسروية (من لباس المجوس). ولما أخبره سلمان الفارسي (رض) ان المجوس يحفرون الخنادق حول بلادهم اذا هاجمها العدو أعجبه ذلك وأمر بحفر الخندق حول المدينة في غزوة الاحزاب وعمل فيه بنفسه بأبي هو وأمي صلى الله عليه وآله وسلم. فبهذا البيان يظهر خطأ السيد عثمان بن عقيل في منعه أن يكون في مدارس المسلمين شيء ما يشبه ما في مدارس الاجانب وخطأ ما أطالت به مجلة «دين ومعيشت» الروسية في بعض المسائل التي جعلت تكأتها فيها حديث «من تشبه بقوم فهو منهم» وهذه المدارس النظامية في مصر والآستانة والشام على طراز

المدارس الاجنبية ولم ينكر ذلك أحد من العلماء في هذه البلاد وما أظن أن السيد عثمان يعد نفسه في طبقة علماء الازهر

وقد أورد السيد عثمان في هذا المقام حديثا آخر وهو « من أحب قوما حشر معهم » وهذا الحديث أورده الحاكم في المستدرك بلا سند فلا يحتج به ولو كان الرجل عالما بالحديث لاورد ما صح بمعناه وهو حديث أنس عند الشيخين « المرء مع من أحب » وفي المعنى حديث « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وهو ضعيف ولكن حسنه الترمذي وأورده ابن الجوزي في الموضوعات . والمراد بالحب هنا ما يحمل المحب أن يتقرب الى من يحبه ويطيعه ويقتدي به ، وما كل نوع من أنواع الحب يحمل على ذلك وقد أباح تعالى للمسلم أن يتزوج باليهودية والنصرانية والزوج يحب زوجه فلو كان معنى الحديث ان كل محب يكون مع من أحبه في الدنيا والآخرة لاستلزمت اباحة نكاح الكتابية كفر المسلم الذي يتمتع بهذا المباح ولاستلزم ذلك الترجيح بلا مرجح فيما اذا أحب كل من هذين الزوجين الآخر كما هو الغالب وهو محال . وأبلغ من ذلك ان الله تعالى قال في خطاب المؤمنين مع اليهود الذين كانوا أشد الناس عداوة لهم (٣ : ١١٩ ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم) فراجع تفسير الآية في ص٨٨ ج ٤ تفسير من القرآن الحكيم

ومع هذا كله نقول ان الذين ينظمون مدارسهم على طريقة الاوربيين ويتعلمون علومهم لا يقتضي ذلك أن يحبوهم بل نرى من المتعلمين في أوربا من هم أشد تعصبا من غيرهم وقد ذكرت هذا لبعض العثمانيين هنا (في الآستانة) فقال والمتعلمون منا على الطريقة الاوربية كذلك . فالسيد عثمان ليس مختبرا ولا عارفا بهذه المسائل وقد علمت ان الحديثين اللذين أوردهما لا يدلان على مراده إن قلنا بأنه يحتج بهما وما كتبه ضار جدا وان أراد به النفع بحسب اجتهاده وما هو بأهل للاجتهاد ساعده الله تعالى

ومن سفاهته انه بعد أن استدل بالحديثين على ما لا يدلان عليه لقلة بضاعته في العربية على كونها بضاعة مزجاة ـ شرع يحذر ترك قراءة كتب السلف الصالحين والاستعاضة

عنها بقراءة كتب التأريخ والجرائد ، وذكر من مضارها انها تورث العقائد الفاسدة ودعوى الاجتهاد والاخذ من الكتاب والسنة . واذا جاز لمثله أن يأخذ من الكتاب والسنة فعلى من يمتنع ذلك ؟ واني أنقل شيئا من كلامه بنصه لئلا يتوهم بعض قراء المنار اننا نرد على عالم مؤلف أخطأ فكبرنا خطأه أو بالغنا في استهجانه . انه حصر عيوب المكاتب والمدارس في ثلاثة أشياء وذكر الاولين منها وهما في المعنى أمر واحد هو التشبه بالاجانب ثم قال مانصه وصورة رسمه :

« والثالث من تلك الفواقر والخسائر ترك قراءة الكتب التي يقرؤها السلف الصالحون التي يكتسبون منها العلوم النافعة وخشية الله والاعمال الصالحة وتبديل تلك الكتب بكتب التواريخ المختلقة والجرائد المتنقة التي يورث في اللسان اللقلقة وفي القلب العقايد الفاسدة وفي الدين التساهل وتتبع الرخص بل تورث دعوى الاجتهاد المشبه بخرط القتاد وذم التقليد بلا تقييد ودعوى استقلال الاخذ من السنة والقرآن مخالفة لما عليه المفسرون الاعيان فاهي الا كراكبة الثان تظن انها تسابق الفرسان ومضادا لسيرة السلف الصالحين بل استخفافا بهم بأنواع التنقيص وعنادا بالمكابرة والمغالطة بالادلة الساقطة » اه

ولا يحسبن القارئ أننا اخترنا هذه العبارة اختيارا لركاكتها وكثرة غلطها ووضوح دلالتها على تجرد صاحبها من الفنون العربية كلها بل جميع عباراته كذلك وهو مع هذا يستنبط الاحكام من الآيات والاحاديث فيحرم على الناس ما أحل الله لهم ويحل لهم ماحرم الله عليهم ولا سيما القول في الدين بغير علم ثم ينكر على العلماء الراسخين مثل هذا الاستدلال ! !

هذا — واننا ننصح لأولئك الابرار الاخيار الذين ينشئون المدارس أن لا يلتفتوا الى هذه الرسالة ولا الى شيء من رسائل هذا الرجل وليختاروا لمدارسهم المعلمين الاكفاء الذين يجمعون لهم بين علم الدين وما يلزم لهم من علوم الدنيا وان يكون لسان حالهم ومقالهم هو لسان القائلين « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا عذاب النار ، أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب »

الفصل الخامس عشر (*)

(بيت خديجة بعد الزواج)

وبدأت السيدة «خديجة» بعد هذا القران السعيد تزداد معرفة بهذا الجوهر الكريم الذي أتاحه الله اليها فألقت الى يد هذا الامين بكل ما تملك ولم يرعها أن الكرم المستحكم في سجاياه سيحمله على اخراج نصيب كبير من هذا المال الى الضيف والعائل فان سيدتنا لم تكن — مع تدبيرها — بالشحيحة الحائطة على المال الفاني بل كانت قد خلقت لتكون مساعدة على الجود . وهل بعد معرفتها بهذا الكنوز الشريف ترى لنفسها معه أمراً أينافي أمره ، أو رأيا يغاير رأيه ، وهي تلك العاقلة الحكيمة المستعدة ان تزداد كمالا كلما أشرق لها من سماء الفيض الالهي نور منه

وأصبح هذا البيت مثابة للمضطرين وأمنا ، فقصدته الايامى ، وشبعت فيه اليتامى ، وخففت فيه أحمال كثيرين ممن حنيت ظهورهم بكثرة الآل ، وقلة المال .

كانت تلك البلاد احيانا تصاب بعسر بل كل بلاد العالم لا تسلم من العسر على الدوام فمساعدة الموسرين في زمن العسر للمعسرين أمر تقضي به الانسانية ولكن قليل من الناس من يكون لهم حظ بالتغلب على شياطين

---

*) تابع لما في (ص٥٤٩م١١) من سيرة السيدة خديجة ، وقد كان كاتب هذه السيرة السيد عبد الحميد الزهراوي اضطر الى ارجاء الكتابة لاعماله السياسية الكثيرة في مجلس الامة

الشكوك والاوهام التي تنمى عن الاتفاق خشية الاملاق أما سيدتنا فكانت ترى إنفاق زوجها ومساعدته للمعسرين وأخذه بيد العاثلين من جملة المزايا العالية التي تقرُّ بها عينها

وفي احدى الازمات كانت ملائكة الرحمة تحوم في ذلك البيت حول أحد الصبيان وتطوف في آفاق نفسه لتطهرها من كل شر حتى لا يخرج من هذا البيت الا وهو امام للناس في الخير والصلاح

وكان هو لاهيا عما أعدَّ له ، وعابثا بمثل مايعبث به أترابه ، ولم يكن هذا الصبي يتيما بل كان أبوه حيا ولكن أبناء السعادة ، أبناء المجد الابدي ، ابناء المجد السرمدي ، تستأثر العناية الازلية بكفالتهم وتربيتهم بصورة خاصة وظاهرة يراها من استعدت بصائرهم للاطلاع البعيد

لم يكن أبو هذا الصبي ليسمح وهو حي أن يتربى كاليتام في غير بيته لأنه هو ذلك الشهم الشهير والشريف الخطير « أبو طالب » ولكن اشتداد الازمة في احدى السنين اضطره ان يقبل رجاء أخيه « العباس » وابن أخيه « محمد الامين » بأن يأخذ كل واحد منهما ولداً من أولاده تخفيفا عنه فكان هذا الاسعد الذي أخذه الامين هو عليًّا الذي صار الامام أبا الائمة ، وبدر سماء السيادة في الأمة

كانت تربية عليّ في البيت من جملة المكتوب للسيدة « خديجة » من حسن الحظ فان الغيب كان يمده لأمر جليل له علاقة بهذا البيت

لعله لم يخطر في بال أهل هذا البيت اذ ذاك أن هذا الصبي الذي يدرج أمامهم فيسرون به سيكون الواسطة الوحيدة لحفظ نسلهم ، ومن أين كانت

تعرف السيدة «خديجة» أنه لا يعيش لها من الذكور ولد وأن هذا الصبي الصغير قد أعده الغيب ختنا كريما وبعلا صالحا لبنتها الصغيرة، وكيف تعلم أنه لا يتسلسل لها عقب الا من تلك الكريمة «فاطمة الزهراء» وانى يخطر في بالها أنها انما كانت تربي هي وزوجها جدا لفترة تتصل بهذا البيت سيدها العالم من أشرف العِتر وستبقى مباركة في الارض دهوراً طويلة عالية المنار، عظيمة الشأن

نعم كل ذلك لم يخطر في البال اذ ذاك ولم يكن الذي في القلب الا القيام بالواجب الذي يقضي به التضامن

نعم! نعم! كل ذلك لم يخطر في البال ولا نوى سيد هذا البيت مكافأة عمه على تربيته التي سبقت له فان بين ذوي القربى لا توجد المكافأة بل يوجد التضامن ولكن كان هذا البيت المملوء نعما يتقاضى وجود نفوس كثيرة تشاركه في تلك النعم لأن لأهله نفوسا لا تعرف الاستئثار، بل تراه من العار والشنار، لا سيما اذا بئس الجار

وقد استفاد من مادة هذا البيت كثيرون كما أشرنا اليه أما علي فانما خصصناه بالذكر ليعرف من عرفه أو سمع بمناقبه العالية وفضائله الزاكية كيف كان هذا البيت السعيد مسعداً للارواح، كما كان مسعدا للاشباح، وليعرف القارىء بسهولة أن البيت الذي أخذ ابن أبي طالب آدابه فيه منذ كان صبيا قد كان مهدا لأكرم الآداب وأعلاها فان عليا المرتضى هو من عرفه العالم كله، هو ذلك الامام الاكبر الخليق ان يكون مثال القدس وزكاء النفس، هو مجمع المعالي وملتقى الاسرار العظمى ومظهر الولاية الكبرى

فما أكرم هذا البيت السعيد وما أعظم بركاته! قد رأينا الامين يجد فيه

مجالا للتخفيف عن المثقلين ، والتنفيس عن المكروبين ، وفيه وجد القصاد صدورا رحبة ، وأيدي مبسوطة ، ولديه خيم الوجود والسخاء ، كما خيم العدل والوفاء ، ومنه اشرقت الآداب العالية ، والتربية الكاملة ، وماذا ترى من بركات هذا البيت بعد ذلك يا ترى؟

الفصل السادس عشر

(العمل الروحي)

أشرفنا الآن على بحر كثيرة لجيجه ، صعبة مسالكه ، وصلنا الى ساحل هذا البحر ولا بد من جوزه ، وأكثر السفن لا يوثق بها في غمراته ، ولا بسوء ثوب الهداية رأس مالهم الدعوى ، وما حيلة الحائرين غير الرجوع الى الله في الجهر والنجوى

هنا نبأ جليل تحار العقول المستقلة بفهمه ، وتشتاق أن تقف على روحه وحده ورسمه ، هنا قد بلغنا من سيرة هذه السيدة الجليلة أن بعلها كان من دأبه أن يتعبد بعض الاوقات في غار من جبل قرب مكة اسمه «حراء» فما هو هذا التعبد وكيف هو ، وما الذي ساق نفسه اليه ، وأي دين فرضه عليه ؟

هذا هو النبأ العظيم الذي تمسك بنا العقول المستقلة اذ تسمعه ولا تدعنا نجوزه الى غيره من غير أن نوضحه ، واذا أخذنا بايضاحه نخشى أن نبعد بالقارىء عن سياق السيرة ، ولكن يقوي عزمنا على هذا الايضاح ظننا بأن الراوي الذي يشرح كل دقيقة فيما يمر به من حكايته قد يفيد القراء أكثر ممن يسرد الاخبار سردا

ان الاديان كلها رسمت أعمالا اسمها عبادات ولكن بعل السيدة

«خديجة» لم يكن تابعا اذ ذاك لدين لأن دين قومه كانت عبادته عبارة عن تعبيد بعض الاحجار التي هي عندهم تماثيل أشخاص مقدسين ولم يكن هو قد تعود هذه العبادة التي لهم

العبادة التي عرفت في الاديان كلها هي بحسب الظاهر أعمال وحركات يرسمها رؤساء الدين من أنبياء وغيرهم، أما لبها فأشواق روحية تقوم في نفس العابد أمام معبوده ويصح أن نسميها عملا روحيا حينئذ

كان بعل هذه السيدة يأتي في غار حراء بعمل روحي تتوجه فيه روحه تلقاء باريء السموات والارض ومشرف مكة وسائق قوس العرب اذ ذاك اليها، ولم يكن مقيما أعمالا رسمية

ان البحث عن سبب تسمية تلك الاعمال الرسمية عبادة في لغتنا يكلف به مشرح اللغة ، والبحث عن اسباب اختيار الاقوام السالفين هذه الصور والاعمال المخصوصة تحت اسم العبادة يكلف به مشرح التأريخ ، أما البحث عن الاشواق الروحية أو التعبد المحمدي في « حراء » فمكلف به كاتب سيرة السيدة « خديجة »

العبارة لا تشفي الصدر في تجلية هذه المعاني ولكن شدة ارتباط هذا الموضوع بهذه السيرة داعية الى السير في هذا البحر العظيم

قد سمعنا في سيرة زوج هذه السيدة أن روحه كانت من أعلى الارواح ونحن نؤمن بهذا ولكن اذا نحن لم نتعرف بالروح ولو قليلا فماذا يكون معنى ايماننا بهذا ؟ لا جرم أن تعرفنا بالروح ضروري في هذه المقامات وهو أمر يشتبه كل امرىء لان كل واحد منا تخطر في باله هذه المسألة :

ما نحن ؟

هذا سؤال قد علم الذين بعُدَ نظرهم في ماضي البشر أنه من جملة فضل الله عليهم وهو أساس ما يسمى في لغتنا دينا وديانة وملة وأحد الاصول والاسباب في ترقي هذا النوع الانساني وتكمله

هذا سؤال تحيط به عمارة طال وقوف العقل فيها . ههنا مرسى سفينة العقل الذي يحاول معرفة نفسه ومنها يبتدىء مجراه لأجل ادراك هذا الجوهر

مواقف الباحثين كادت تتساوى أمام صعوبة هذا السؤال، اذ لا براهين عقلية قطعية في نفي شيء أو اثبات شيء في جوابه ، ولكن اذا عزّت هذه البراهين لا يعدم عشاق هذا المطلوب آيات كثيرة في الوجودات ومن فضل الله على اهل هذه الصورة البشرية جعل قلوبهم مستعدة لقبول ما تأتي به هذه الآيات من ضياء ولا يحرمه الا قليل تُرمى فيهم المليرة لاسباب محسوسة وغير محسوسة

هذه الوجودات قد ملئت آيات ، فاذا حالت دونها الحجب لجّ العقل في عمارات أو عمايات ، واذا بدت لا يحجبها حاجب نهج في هدايات

انها لمن تأمّل مراتب وصفوف ، ولكل وجود قوة ولكل قوة أثر ، واختلاف القوى وآثارها ، هو على مقدار أشكال الوجودات وصورها وحيزها ولمارزق الانسان هذا النطق الواسع وضع أسماء لكل ما لاح له من وجود وظن المسكين أنه بوضع الاسماء أحاط بالحقائق وهي لم تزده عنها الا بعدا

الانسان بعض هذه الوجودات وفيه قوى تحتاج حسب عادته الى

أسماء فالروح للانسان اسم للقوة العظمى التي فيه ، اسم لما يكون به الانسان مستقلا متميزا يقول أنا ويقال عنه هو وان عفا أثره

آمن الناس بهذا الاسم متفقين ولكن فيما يدل عليه قد اشتد تباينهم وحار نظرهم في ادراك حقائق هذه القوى التي في الانسان وفي كيفية علاقتها بهذا الجسم البشري الذي متى برحته أصبح لا فرق بينه وبين كثير من صنوف الجمادات والذي يزيد حيرتهم شدة تسامي بعض الارواح كروح من سعدت بقربه سيدتنا صاحبة هذه السيرة

بحثت كالباحثين ، وحرت كالحائرين ، ثم وجدت كالواجدين ، فما ألذها على القلب من حيرة عقبها بلوغ الغاية والحمد لله رب العالمين

اليك حديث قصي بشأنها : أفقت اليوم من النوم ونصل حسي وشعوري من غلافه ، كما نصل هذا الفجر من غمده ، فوجدتني كأني وليد هذه الساعة ، لأني قبل هذه اللحظة لم أكن أرى هذه الا كوان ، ولم احس بما فيها من الاصوات والألوان ، ولم أكن أشعر بعلائماني ومؤلماتي ، فكأني كنت غير هذا الموجود الجديد ،

أين كانت لدتي برؤية هذه القبة ، وأنسي بما على هذا البساط ، وأني كان ابتهاجي بزواهر هذه الزرقاء ، وزواخر هذه الغبراء . . . ومن حولي الآن أغاني طيور ، ورقص غصون ، وأريج زهور ، وبدائع نقوش ، وترتيب صنوف ، وحركات نور ، وتجليات سكون ، وفي أنا أثار انفعال من كل هذا قد تحرك بها ما اسمه فكري ثم تحرك بها ما اسمه لساني فسمعتني أقول « سبحانك ربنا ما خلقت هذا باطلا »

سبحانك يا فاطر يا بارىء يا مصور ولك الحمد ! أنا متذكر الآن أني

أبصرت هذه المرائي ، وسمعت هذه الاماني أمس لما بزغ الفجر بزوغه هذا فأين ذهب ابصاري وسمعي بين ذينك الابصار والسمع اللذين كانا أمس وبين هذين الابصار والسمع اللذين اتياني الآن وأنا متذكر أن هذا الامر وقع لي مرارا كثيرة ألوفا من المرات فما هذا الاحتجاب ثم الظهور ، وأين كان الاحساس محتجبا قبل ان عرفته أول مرة ؟

رباه ! من اسائل عن هذا .. ؟ ان هذه الصوامت التي من حولي لا تجيب ! لعلها لا تسمعني ، أو لعلي لا أسمعها ، أو لعلها لا ذكر لها في هذه المسائل ، وكيف أصبر على جهلي بشيء يتعلق بي ، كيف لا أبحث عن أصل احساسي وعن احتجابه ! ألا يهمني أن أعرف هل أمره كأمر هذه الشجيرات يتعلق ورقها ثم يعود ثم تيبس مرة واحدة فتصير حطبا ثم رمادا ؟ أم أمره كأمر هذه الشمس يظهر نورها على جهة ثم يغيب عنها ثم يعود اليها وهو لا يزول أبدا ؟ كيف أقنع للنفس الانسانية بحالة هذه الشجيرات وهي لها من الخواص والآثار ما ليس لشيء غيرها في هذه الارض . كلا سأسائل ثم كلا سأسائل !

رفعت رأسي الى السماء فألفيت بواهر ولا مجيب ، وأهويت بها الى الارض فألفيت بواهر ولا مجيب !

فضاء أمامي ، لا أعرف له ساحلا وحدا ، تارة يفيض نورا ، وأخرى يحتجب بالظلمات ، أراني وأرضي محمولين فيه ولا أعرف من هذا المتن العظيم الا اسماء وضعوها له لا تشرح كنهها ولا تؤدي بدلالة كافية

تتلاعب فيه النسمات لعلها ناسية أن الامر جده وما هو بالهزل واللعب ، وتتناغى فيه الاصوات كأنها تحسب أن في كل موجود دماغا يأخذ بحظ منها ولعل حسابها خائب !

بيني وبين كل ماهو محمول في الفضاء مثل علاقة قد عرفتها بهذا النور البازغ، فهل بزغ هذا النور لاعرفها أم لتعرفني وهل كانت لي أم كنت لها لم كنا جميعا لهذا النور أم كان هو لنا ؟ ولكني أعرف يا نوراني لولاك لما عرفت شيئا

سلام عليك أيها النور ! يا حاملا نعمة المعرفة الينا، وشكرا لمن تسبح أيها النور بجلاله، وتهدينا الى آيات جماله

بالنور عرفت ما عرفت ولكن لست ادري كيف عرفت، قد نقشت السموات والارض على عظمتها في لوح لا يكاد يحس في دماغي، فهذا اليم الذي يسبح الآن أمام غرفتي اصبح لاشيء عندي على اتساعه لانه محدود وهذه الشمس العظيمة التي بدأت تبزغ هذه الساعة قد غدت صغيرة في عيني لاني احطت بها، وهذه الارض التي اراها كسرير لي قد تلاشت في نظري اذ وجدتها هي وكل بحورها ذرة طافية في ذلك اليم الذي لا ساحل له، ادركت في هذه الساعة أن هذه الأشياء كلها مهما عظم حجمها فهي كالصفر بالنسبة الى مالا يتناهي، فعلمت ان ليس فيما أحاط به حسي مايدفع عن فكري عطشه

راقني جمال هذه الكائنات ثم حيرني منها انها كلها مسخرة لنا وما نحن لها بمسخرين فهل نحن على صغر حجمنا اكرم معنى منها ؟

تركت حيرتي هنا والتفت الى هذه الشجيرات التي اراها تتزين كعرائس الانس وسألتها فلم تجب او لم افهم حفيفها، وانثنيت الى هذه اليمامات الراقصة باعناقها فسألتها فلم تجب او لم افهم هديلها، لكنني استأنست بهذه وتلك اكثر من استئناسي بالمتحجرات لاشوق يخالط منها الجنان، ولا حركة لها الا على يد الانسان، وطال أنسي بهذه الخضر

المترعات ، والورق المتنيات ، حتى كدت أفقه حديثها ، وأفسر تبيانها ، هذه ذكرتي بمعنى الحياة وأعادتني الى نفسي وهي ضالتي المنشودة وبها الهدى الى ماأنشده

لم أجد غير نفسي يجيبني عن نفسي بعد أن ساح حسي وفكري في هذه العوالم المحدودة .. أيّاما ناجيت ، وكلاما وعيت ، فهي التي حدثتني أني لست الا ذرة صغيرة جداً سابحة في هذا الفلك ، وفي هذه الذرة الصغيرة ذرات كثيرة كل واحدة منها بالنسبة الى الذرة الجامعة هي كواحد من ألوف ألوف ألوف الالوف ، وفي كل واحدة توجد الحياة ولكن ليست كلها مركزاً للحياة لاننا نجد أن ألوف ألوف ألوف من هذه اذا أفسد وضعها لاتزول الحياة ولكن هناك بعض ذرات اذا أفسد وضعها تزول الحياة كلها من جميع هذه الذرات التي يتكون من مجموعها الجسم فهذه الذرات القليلة التي هذا شأنها هي مركز الحياة

أعظم مجالي الحياة في نظري هو الادراك الفكري وهو قارّ في ذرات قليلة لا يحاط بها

أدهشني هذا الموقف الذي وصلت اليه ، وهذا المرأى الذي وقفت عليه ، حيرني من هذه الذرات أن تسع صور السموات والارض وصور أعمال البشر منذ كانوا الى اليوم ، وحيرني منها أن هذه النتائج العظيمة التي تصدر عنها انما تصدر اذا كانت بوضعها المخصوص وما أسرع زوال هذه النتائج اذا اختل وضع الذرات

رأيت هذا الامر العجيب ولكن لا مستقر للفكر عند هذا المرأى اذ قصارا ه

أني عرفت شيئا صغيراً جداً يسع أشياء لاتحصى مع أني انما أبغي أن أعرف ماهو ذلك الشيء الصغير مبناه جداً جداً العظيم معناه جداً جداً ؟ ماهو ذلك الشيء الذي بوجوده على حالة مخصوصة يكون هذا الجسم متحركا حساسا يحيط بالسموات والارض وبتغيره يغدو هذا الجسم ترابا صامتا صاراً تحت الاقدام ؟ ماهي تلك الحالة المخصوصة ؟ وما هو تغيرها وكيف نظامها ؟ هل هو في احاطته تلك تابع لهذا النظام أم النظام تابع له ؟ هل هو يحتاج الى هذا النظام بعينه أم يستطيع ان يؤلف نظاما آخر متى تغير نظامه هذا ؟ وان كان تابعا لهذا النظام بعينه فهل وجدت هذه الصبغة لتزول بأسرع من لمح البصر بالنسبة الى عمر غيرها على مايخال وجودها من الاحتجابات ؟؟

محاولات بعد محاولات ، ولكن تلوح خلالها آيات ، اذ قد ملأنا رب الوجود أمثالا ، وأتاحت لنا معرفتنا بالامثال أن حقائق الاشياء محتجبة والظاهر انما هو آثارها : فهذا النور الذي يملأ الفضاء لانعلم كنهه ، وهذه الشمس وما حولها لاندري كيف قامت ، فصارانا أنا عرفنا سبحها في هذا الفضاء لا يسندها عمد ، ولا يمتريها سكون ، وهي مع ذلك سائرة بنظام ، ودائرة بإحكام ، لاتخرج عن مستقراتها ، ولا تحيد عن مجاريها ، ولكن ماهو ذلك السر الذي قامت به هذا المقام ؟ سموا شيئا من ذلك بالجاذبية فهل هذه التسمية دالة على الكنه والحقيقة ؟

إن قصارى مانعرفه من هذه المركبات أنها قابلة للتحلل فاذا حللناها انتهينا الى عناصر قليل عددها لاتحول ولا تحلل هي الامهات ثم هي تنتهي الى أم واحدة لانعرف من أمرها شيئا !

المشاهدة هي أكبر وسائط معارفنا ، ولكن الة هذه المشاهدة عاجزة

عن أن ترينا الاشياء كما هي، ولو اقتصر الامر عليها لكانت علومنا بهذه الكوائن خطأ من أولها الى آخرها

هذه الشمس التي نحن وأرضنا في نظامها الكبير أقل من حبة رمل في جبل عظيم ـ ليست أمام المشاهدة الخصوصية لكل واحد منا الا كمصباح بسيط يشتعل ساعات وينطفي ساعات، وما هي الا جسم كرة مما يلعب بها اللاعبون !

على هذه النسبة من الخطأ نرى كل شيء أقل من حجمه وعلى خلاف وضعه ، فقد نرى واحداً وهو متعدد ، وبسيطا وهو متركب ، وساكنا وهو متحرك ، وصغيرا وهو كبير ، حتى نصل الى ما هو صغير جدا فلا نراه البتة كما دلتنا التجارب بعد أن اهتدينا للآلات الصناعية التي تساعد بواصرنا الطبيعية إما مساعدة . . بهذه الآلات استطعنا أن نرى أنواعا من الحيوانات كانت خافية على الابصار دهورا دهاريرا . ولعلنا سنهتدي الى ما يرينا أصغر من تلك الصغائر . ونحن في مثل هذه الهدايات العظيمة التي جاءتنا هدية من الفاطر على يد التجارب لا نجد ما يمنعنا من الظن بأننا مهما استعنا بالآلات نبقى في مشاهداتنا بعيدين عن كشف الاشياء كما هي وتبقى أشياء كثيرة خافية على ابصارنا وآلاتنا مهما بلغنا بها

فما أكرمك ياعيني علي ! أنت أنت كنت سبب ارشادي الى حقيقتي اذ لم تريها لاني عرفت بالتجربة انك مسكينة عاجزة لا ترين كل شيء ولا ترين شيئا مما ترينه على وضعه وحقيقته فاضطررت ان أقيس وجودي على وجود غيري !.. لا جرم ان لي حقيقة مستترة عنك وراء وجودي الجسمي الذي تشاهدينه كما ان وراء النور حقائق مستترة ولا جرم ان حقيقتي هي سبب وجودي كما ان الحقائق المستترة وراء النور هي سبب وجوده

ان الحقيقة العظمى التي هي باطنة من وراء الاشياء كلها، وظاهرة عليها كلها هي حقيقة واجب الوجود، حقيقة من لا بد لوجودنا من وجوده، ولا بد لتشكلنا وتنوعنا من فيض تخصيصه وجوده.. هي حقيقة من له الحياة الازلية الابدية لان الحياة التي نعرفها منه صدرت، وله العلم الازلي الابدي لان العلوم التي نعهدها من فضله أتت، وله الارادة الازلية الابدية لان الارادة التي نجدها من لدنه أهديت، وله القدرة التامة الشاملة لان القدرة من عنده نشأت.. هي حقيقة من لا مثال له في كمال وجوده، وعنه صدرت امثلة الكمال في الوجودات الظاهرة.. هي حقيقة الباري، المصور الذي برأ حقيقة مثال كامل حي سميع بصير مريد وجعل حجابه هذا الهيكل البشري

أصبحت لا أرتاب في أن الحقيقة العظمى هي التي تهدينا بآثارها وبامداداتها الى كل شيء مما نعرفه، ولكن لشدة ظهورها الذي قد يدل البطون ربما تخفى، فاذ نطلب معرفة النفس تظهر آياتها العظمى فسبحان الله من عرف ربه فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه

عرفت الآن من امر نفسي أو روحي أنها لا يعرف كنهها ولم يزدني جهلي بكنهها الا ايمانا بحقيقتها الجليلة المستقلة عن الجسد لاني لم أعرف من أمر كل جزء من اجزاء الجسد الا مشابهته لهذه الجمادات التي أمامي وليس فيما أمامي شيء يجمع فيه ما تجمعه هذه الروح. وقد حاولت كما يفعله بعضهم أن انسب هذه الخواص الى المجموع المركب من هذه المواد على نظام خاص فلم يسلس له فكري بل جمح عنه كثيراً لتذكره النظام الشمسي وذهابه الى انه انما قام بما يسمونه الجاذبية ولم تقم هي به

فما نفسنا او روحنا الاجاذبية النوع وكهربائية الخصائص والمزايا ، وهي هي مؤلفة الهيأكل وناظمتها. لا بدع في ذلك فالكوائن كلها من اصل لا يرى ولم تنفصل عنه ولا يكون الاصل تابعا للفرع ولا ضرورة لتغير الاصل اذا تغير الفرع . ولا يصعب فهم هذا على من عرف كيف يتجسد مالا يرى فيصير مما يرى ، وكيف يتلطف ما يرى فيصير مالا يرى . الصناعة بهذا ضمينة ، والتجربة فيه هادية امينة ، ولا يصعب ايضا على من عرف آيات النفس التي تظهر في بعض الاشخاص لتعلم بها ان لها شؤونا غريبة جدا فوق المعهود منها والمألوف من دخولها في قيد الحس ، سبحان الله كم لها من انطلاق منه يظهر معه ان لا حاجة لها بهذه الآلات العضلية والعظمية والعصبية

نحن شاهدنا من هذا كثيرا ، وشاهد مثلنا خلق لا يحصون ، والباحثون المحققون شاهدوا ايضا او نقل اليهم ثقات كثيرون مجموعهم يدفع عن نفوسهم الريب وما علمنا انهم وجدوا لهذا الامتياز الفائق اسبابا جلية ؛ غاية ما صنعوا انهم وضعوا لبعض هذه الامور اسماء وظن القاصرون أن هذه الاسماء تحل الاشكال ، وتحكي حقيقة الحال !

وسمعنا سماعا لا يستطيع الريب معه البقاء أن اشخاصا يشفون امراضا معضلة بغير علاج ولم يقل لنا علماء الابدان في تعليل هذا الامر الا انه شفاء بالوهم فياعجبا ماهو هذا الوهم الشافي ولماذا لا يشفي بالوهم كل شخص ؟!

حالة المنوَّم تنويما مغنطيسيا هي من الادلة الصريحة في هذا الباب على شدة غرابة امر هذا الموجود الصغير الكبير واستعداده لخرق الحجب الكثيفة ، وقد القيود الحسية ، وعمله الاعمال العظيمة من غير حركة يبديها او واسطة يأتيها !

* * *

هذا حديث نفسي وخلاصة ماظهر لي أن الروح خلق مستقل ذو ظهورات فائقة ، واحتجابات محيرة ، هو اقسام كثيرة ، نصيبنا منه عظيم ، وارتقاء نوعنا لولاه عديم ، هو الحي السميع البصير المريد المستعد للظهور والاجتنان ، المصنوع آية كبرى دالة على جامع الاكوان

وظهر لي ان خصائص الروح الشوق ، ولو قلت ان الروح هو الخلق ذوالشوق لما وجدت هذا غريبا في تعريفها . ولكل روح شوق بناسبها وعلى نسبة شوقها تكون رتبتها وصفها في عالمها الذي هي منه ، وفي عالم المثال والعيان الذي دفعها اليه شوقها الى الظهور

***

كانت روح هذا السيد بعل سيدتنا «خديجة» من اعلى الارواح ، وكان شوقها ازكي شوق واقدسه ، كانت عظيمة الشوق الى رؤية فاطرها ولكن هل الفاطر عز وجل يُرى ؟ لعلها حارت زمنا في هذا الامر ، ولعلها قالت لو كان يُرى لكان محدودا وكيف يدخل في حد من برأ الحدود ! ولعلها عادت الى زيادة التبصر فقالت هل الرؤية مخصوصة بهذه الباصرة ؟ وهل يشترط أن يكون المرئي متشخصا ، أليس القصد من الرؤية العلم ، ألا يمكن العلم بالناظر مع انه غير متشخص ؟

هذا ما كانت تحوم حوله هذه الروح العلوية التي كان مظهرها وبيتها الصوري في بيت «خديجة» ومطافها ومطارها ملكوت الحق ، ملكوت الوجود الاعلى

ولعلها يئست من ان تجد فيما حولها مايروي اوارها من معرفة فاطرها الذي اشتد شوقها اليه بل لعلها غلب عليها ذلك الشوق حتى اصبحت

زاهدة في كل رؤية وكل سمع لانها تريد أن ترى وتسمع الذي اليه طارت شوقا ولذلك رأينا «محمدا» (صلى الله عليه وسلم) قد حببت اليه الخلوة والانفراد ولاسيما اذ شارف الاربعين من سنيه وكان لغار «حراء» الحظ من هذه الروح الحائمة على حبيبها وطيب شوقها

من ذا الذي يعلم غير الله ما كان يقوله هذا المنقطع في ذلك الغار ولكن يصح لنا ان نظن بأنه كان يساقط الدموع ويناجي المقصود المطلوب بقوله: رباه! رباه! كيف الوصول الى حضراتك؟ كيف السبيل الى مشاهدات تجلياتك؟ اليك ايها المولى من مزيد حبي قياميوقعودي، وركوعي وسجودي، ومن مزيد شوقي ذرف دموعي، وفرط ولوعي، رحماك رحماك يارب! كبد تذوب وعين تسيل، وفكر يتدله، وانت انت مطلوبي وانت انت ذو الكرم والجود!

* * *

على هذا المثال كانت حاله، وهذا هو العمل الروحي الذي شغل به باله، وقد فهم القريبون من فهم الروح مقدار فوائد هذه النجوى القدسية وأما البعيدون عن هذا الشوق فيعجبون وينكرون، وليتهم يتذكرون عن الناس وتدلهاتهم بهذه المتغيرات من صور وأشكال لاتوقف الحياة عليها، ولا يجدون الطمأنينة لديها، هذه المحن والتدلهات أقضي بالعجب لعمر الحق لو كانوا يعقلون. وأما ابتعاد روح عن المحسوسات في سبيل الاقتراب من حضرة من لاتدركه الابصار فسمي وراء مبتغى جليل.

العمل الذي فيه لذة لامضرة على الغير فيها لا ينكره عقل، ولا أرباب الاعمال الروحية لذات لايستبدلون بها كل لذات المفتونين بالمحسوسات

فعسى أن يتذكر العقل المستقل هذا المعنى فلا يكبر عليه أن يفهم أقل الحكم في الاعمال الروحية وهي لذة أربابها وانتعاشهم وتفتح بصائرهم لرؤية المعالي كما هي فلا يحزنهم شيء بعد في نيلها ولا تقف همومهم أمام حزن في طريقها

كانت السيدة « خديجة » شديدة الفهم وعظيمة الثقة ببركات هذا العمل الروحي فساعدت عليه ولم تلم صاحبه ولا عتبته، كانت عظيمة الايمان بالقوة العظمى، والحقيقة الكبرى، فلم تر بأسا بل لم تر الا الخير بتوجه وجه زوجها الكريم تلقاء سوانح الامدادات الفائضة من لدن ذلك الملكوت الذي لا حد له.. كانت قد عرفت أن هذا الغار في «حراء» الفارغ من كل مشتهى حسي كان حريا أن يكون مثابة لهذا الشيخ الشريف الحامل قلبا قد فرغ من كل شيء غير الوله بالمعالي القدسية، والشوق الى الحضرات الربانية. فكانت تبارك على هذا الغار الفارغ وتسأل الله أن يملأه معالي وبركات وقد أجاب الله تعالى كرمه سؤلها وكتب «حراء» في الصف الاول بين الاماكن التي تتوج بتمجيد الناس وتحياتهم ومحامدهم. وكم قد ترجمت قرائح الشعراء عن احترامهم وتكريمهم لهذا الغار أو لهذا المطلع الذي فاق بدره البدور، قال قائل منهم:

سلامٌ عليك حِراء الشهير أمطلع ذاك الضياء العظيم
سلامُ فؤاد ذكور شكور بقدر الذي قد صحبت عليم

* *

لأنت يتيمة عقد الوطن فقيك أضاء السراج المنير
بذكراك يلقي الفؤاد السكن فذكراك ذكرى عطاء كبير